فريدة الشوباشي

تل الزعتر

انتهى عبدالحليم حافظ من اغنية حب فاشل .. بعد موسيقى قصيرة ، نشرة انباء . المذيع يلتزم في ادائه « الموضوعية » فلا تتغير نبرة صوته وهو يقرأ انباء تطور القتال بتل الزعتر .. غصة خفيفة في قلبي تمحو اثارها خفة دم عادل امام وانا اتابع تمثيلية كوميدية له بالتلفزيون .. ذهبت للنوم بفراشي النظيف الوثير .. نسيت كيف كانت نومتي من قبل ... آه .. كان أشد ما يؤلمني قلة الغطاء شتاء .. كنت اتدفأ بأجسام اخوتي .. احيانا كان البرد اقسى من دفء اجسامنا ... ظللت طويلا احلم بالخبز للجميع واحلم ايضا بالغطاء للجميع .. نبض قلبي لفلسطينيين .. عدت لتل الزعتر .. ضايقني حياد المذيع .. مددت يدي اتلهى باخبار متناثرة في مجلة مرحة ، ضحكت من رسم كاريكاتوري .. نمت شهرا ... طالعتني مصادفة انباء تل الزعتر .. مذابح .. مقاومة .. بطولة .. بسالة .. فاشية .. يسار .. يمين .. نساء تبقر بطونها .. تستنجد بالمسيح .. قالوا لهن انه يقف هناك .. على الطرف الاخر .. الاصوات والكلمات تتداخل . سرت رجفة في عظامي وانا اتساءل على بعد الاف الاميال . من المخيم .. اين يقف المسيح ؟ كان مثلهم ، يتدفأ في لحم امه في بيت لحم .. مات بردا عندما صلبوه بعيدا عنها .. ظهرت صوره بالتلفزيون كومة جثث لاطفال كان يمكن ان يلتفوا حول المسيح ... يتدفأون فوق الصليب .. يذيبون صلب مسامير يديه .. لم يتيحوا لهم الفرصة .. كومة ساكنة لا تستطيع حراكا .. لا تسمع ولا ترى .. الشماتة والتشفي او .. الاستنكار والعطف .. او .. الثورة والرغبة في الثار : لم يعد شيء يعني الكومة الساكنة. اصبح امرها يعني الآخرين . يجب دفن اكوام اللحم خوفا من انتشار الاوبئة .. وربما ايضا لحرمة الاموات .. هل المسيح يقف على الطرف الآخر حقا ؟ قد يأتي يصحبهم الى حيث دفن هو نفسه .. سمعت انه مثلهم ممنوع من دخول بيت لحم .. بل ومن فلسطين ! حضرت اجتماعا لتأييد مقاتلي تل الزعتر والاشادة ببطولتهم .. فرغت الكلمات من مضمونها والصور تتوالى .. رؤوس فصلت عن اجسادها ... عجوز بين حطام كوخه الصغير يبصق علينا نحن المشاهدين .. عصام او عادل او عمر ملقى في بحر دمائه .. يده تقبض بقوة على بندقيته .. يحتضنها .. يوصي بالرفق بها .. خرجت من الاجتماع ومطارق تدق رأسي .. ترقرقت دمعة في عيني .. قلت لصديقي : « أريد ان انسى . لنذهب الى بار الشيراتون . ونأخذ كأسين . » عدت اضحك مع الاصدقاء الملتفين حول البار .. حمدا لله .. نسيت تل الزعتر وغابت صوره عن عيني .. نمت نوما هادئا لمدة اسبوع ... صحوت على عنوان صحيفة .. لا يزال المقاتلون يقاومون ببسالة .. دفاعا عني ! ! بكيت بصوت عال . رجال المخيم يبكون بدورهم علي .. خرجت الى الشارع . رحت أشكو للنيل .. سألته من يبكي على من ؟ ..

صمت النيل كعادته الازلية .. ادار صفحته وطلب مني توجيه سؤالي لمن يتكلمون .. الناس تسير على ضفتيه .. في ايديهم لب وترمس .. واحيانا لا شيء .. البعض يتكلم والاخر لا ينصت . صرخت صرخة مدوية .. تل الزعتر .. تطلع المارة الي بدهشة . ابتسم نفر من جنوني ومنحني آخر نظرة اشفاق .. قال لي ابي :

ـ ضربني جند الامن وكسروا ذراعي .. اشتركت في الاضراب ..

المشكلة قطع المرتب حتى تشفى ذراعه .. بكت امي .. علا نحيبها . وصبي البقال يسألها دفع دين الشهر الماضي .. كانت دموع امرأة . الرصاص اقسى من صوت صبي البقال .. المخيم جزيرة محاطة بوحوش ضارية . وقفت طبيبة امام الات التصوير .. قالت بنبرة حاسمة : « سنقاوم وننتصر » . اخذت احلل الكلمات التي طالما طربت لقراءتها في سريري المريح.. س .. ن .. قا .. و . م اي سنرد رصاص المعتدين بصدورنا .. وس . ن . ن .. ت . ص . ر .. ستفنى الرصاصات ونبقى .. أطمأن قلبي .. حاولت النوم .. لم انجح .. شربت كأسا واثنتين . هرب نومي مع طلقات البنادق .. جريت نحو الحبوب المهدئة .. نمت حتى الصباح .. عدت اتطلع الى وجه المدينة .. العثور على مقعد بالاتوبيس يشبه الحرب الصغيرة .. تعقبت رجلا يعدو للحاق بالباص ـ اسمع .. تل الزعتر . رفع يده يطالبني بالكف عن الكلام دون ان يستدير .. قد .. قد يتمخض اجتماع الجامعة العربية هذه المرة عن شيء اكبر من الفأر .. رائحة الخيانة تزكم انفي .. رائحة البارود تسد حلقي ... رائحة بولي وانا اتسمر في مكاني تشبه رائحة الخيانة ـ كل الروائح نتشابه وتجثم على صدري . رأيت نفسي في عيون كثيرة حولي لم تعد الخمر تشفيها .. كسرت ذراع ابي وكسر عنقه .. تحسست عنقي في هلع ـ شعرت بغثيان قاتل .

الطريق الى لبنان محفوف بالمخاطر .. تتزحلق سيارات المسؤولين في الدماء التي تغرق الطرق .. يا تل الزعتر ـ يا تل الزعتر .. اجبني بحق السماء .. اجبني قبل ان يخفت صوتك المؤرق .. كيف السبيل اليك ؟

اني اتزحلق في بولي ودمائك ـ فكيف السبيل اليك ؟

باريس ١٤ آب ١٩٧٦